التأويل السياقي
ودوره في بيان المقصد القرآني

د.المثنى عبد الفتاح محمود
المملكة الأردنية الهاشمية – عمان

المقدمة

الحمد لله الذي صيَّر الكون متسقاً في موجوداته، ومقصداً باهراً في ذاته، حتى تجلى للناظرين، وعرفته عيون الباصرين، وأنزل كتاباً تناسقت معانيه، وتناغمت مبانيه، حتى رست مقاصده في قلوب العارفين، وصدحت بذلك ألسن القارئين، فهو كتاب متوالٍ ما توالى الليل والنهار، لا ينفك عنه من عرف العزيز الغفار، وبعد؛

فإن البحث في القرآن الكريم منحة جليلة، ومنقبة فريدة، لمن تولاه الله بحفظ الباطن، وأزاح عنه همَّ الدنيا بما اشتملت عليه من شرٍ باطن، ولا يكاد الباحثون ينتهون من مسألة من مسائله الجليلات، حتى تُلوِّح لهم مسألة أخرى بمنديل الأعطيات، وقد ظهر لي بعد أن وقفت مع المقصد القرآني بالاعتبار التفسيري الدقيق، أنه موضوع حري بالبحث والدراسة المعمقة من زاوية لم تكن خاطرة لي على بال، وهو أن نزول الآيات المقطعية، والسور المفصلية، كان مرتبطاً بإرادة إلهية لمعالجة السلوك الفكري الذي عاشه العرب وقتذاك، فكانت

مقاصد المقاطع والسور مترابطة فيما بينها في العلاج التدريجي للتصور العقدي، وأن هذه السور نزلت باعتبارات متعددة، يمهد بعضها لبعض، ويبني بعضها قواعد التفكير في سلم التدبر والتأمل، ويُلغي بعضها القناعات تلو القناعات، ويُحرك الهمم ويحفز الجرأة في السؤال؛ ليتحول إلى استنكار واستهجان، ثم تنزل السور المُجهزة على القديم البائد[1]، ضمن سلسلة مقاصدية؛ بما يحقق الغاية العظمى الذي لأجلها أُنزل القرآن، وهي عبادة الله تعالى وحده، بعد التطهير والتزكية، كما هو المعهود: فالتخلية قبل التحلية.

وقد جاء البحث في مقدمة ومبحثين وخاتمة.

تضمن المبحث الأول المطالب الآتية:

مفهوم التأويل السياقي، ومفهوم المقصد القرآني، والفرق بين المقصد والموضوع.

واشتمل المبحث الثاني على الدراسة التطبيقية، وكان في أربعة مطالب تطبيقية.

والله أسأل أن يجعل هذا البحث مُعيناً لي على الخير في فهم مبتغاه سبحانه، وأن يرزقني حسن الفهم لدقائق كلامه، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

المبحث الأول

سأتناول في هذا المبحث مجموعة من المطالب النظرية الضرورية، وهي بيان مفهوم التأويل السياقي باعتباره التركيبي، ومفهوم المقصد القرآني، والفرق

---

[1] وأعظم مثال على ذلك سورة الأنعام، التي نزلت دفعة واحدة فأجهزت على القديم بعد سلسلة من نزول السور السابقة في تهيئة الأمر، وأنجزت غاية عظمى كان لها الأثر العظيم في سقوط فكرة القداسة للأصنام وخدام الأصنام في نفوس المتلقين، وفي عقول السامعين، حتى بات الأمر مكشوفاً غير مستور، وبذلك يكون القرآن قد أدخل على القوم ما كانوا يحذرونه، وهي سياسة لا يكشفها لك إلا التدبر في مقاصدية السور بشكلها التخصصي المركَّز.

بين المقصد القرآني والموضوع القرآني؛ ليتسنى لنا الولوج في الدراسة التطبيقية بشكل مؤصَّل.

المطلب الأول: مفهوم التأويل السياقي

المفاهيم العلمية قاعدة أصيلة وأصل راسخ في بيان مراد المتكلم، وإزاحةِ فهم المتحكم، وهي انضباط علمي للخروج من متاهات الاحتمالات، والوقوفِ على المقصود باستبعاد الملابسات، وسأقف مع مفهوم التأويل السياقي من حيث هو مفهوم له أبعاده العلمية الضابطة لسلوك الفهم والاستنباط، ولا أعني بالتأويل المفهومَ الأصوليَّ الكلامي عند المتأخرين، وإنما أعني به ما ترجمه الإمام البغوي بقوله: "صرف الآية إلى معنى محتملٍ موافق لما قبلها وما بعدها، غيرِ مخالف للكتاب والسنة من طريق الاستنباط"[1]، ومستند التأويل على هذا تدبُّرُ سياق الآية وسباقها ولحاقها، للخلوص إلى معنىً راجح سياقياً، من مجموع ما تقلُّه الألفاظ من معانٍ محتملة، وبهذا يختلف عن التفسير الذي هو عبارة عن: "الكلام في أسباب نزول الآية وشأنها وقصتها، فلا يجوز إلا بالسماع بعد ثبوته من طريق النقل"[2]، ويكون التفسير بذلك مُعيناً على التأويل وضابطاً من ضوابط الفهم والاستنباط.

وأما السياق فهو تتابع المعاني وانتظامها في سلك الألفاظ؛ لتبلغ غايتها الموضوعية في بيان المعنى المقصود، دون انقطاع أو انفصال[3]، فالسياق في حقيقته علاقة معنى بمعنى، وحقيقة بحقيقة، وهو بذلك يشكل للمتلقي القدرة على فهم طبيعة العلائق اللفظية والمعنوية في النص الواحد، لترجيح بعض

---

[1] معالم التنزيل، محيي السنة أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: محمد عبد الله النمر وآخران، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط4، 1417ه - 1997م، ج1ص46.

[2] معالم التنزيل، البغوي، ج1ص46.

[3] نظرية السياق القرآني دراسة تأصيلية دلالية نقدية، المثنى عبد الفتاح محمود، دار وائل للنشر، عمان – الأردن، ط1، 2008م، ص15.

محمولات الألفاظ على بعضها الآخر، ويكون السياق الداعمَ الأساس في عملية التأويل الصحيح للنص القرآني، ونستطيع أن نقول في مفهوم التأويل السياقي بأنه: النظر في سوابق النص ولواحقه، وترجيح المعنى المتوافق مع سياق الكلام بما يحقق قصدية المتكلم، ويُرضي عقلية المتفهم.

وعليه فالتأويل السياقي منهجية معتبرة في الوصول إلى المعنى المراد، وإزاحة الأقوال التي تؤدي إلى الشتات، وتثبيت المعنى الذي يكون عليه الاعتماد، وترك الآراء التي تعين على الانفلات، وجماع ذلك الحرص كل الحرص أن يكون المرء مشغوفاً في بلوغ رتبة أهل الرقائق، مقلباً بصيرته وبصره للوقوف على حقائق الدقائق، كما روي[1] موقوفاً أن أبا الدرداء رضي الله عنه قال: "لا تفقه كل الفقه حتى ترى للقرآن وجوهاً كثيرة"[2]، وقد سأل حماد بن زيد أيوب السختياني: "ما معنى قول أبي الدرداء رضي الله عنه؟ فجعل يتفكر فقلت – أي: حماد -: هو أن ترى له وجوهاً فتهاب الإقدام عليه، فقال: هو ذاك، هو ذاك"[3].

---

[1] رفع مقاتل بن سليمان البلخي في مطلع كتابه الوجوه والنظائر هذا الأثر وهو يقصد بذلك تأصيلاً لكتابه الذي صنفه في الوجوه والنظائر، والحق أن مراد أبي الدرداء رضي الله عنه لا علاقة له بمراد مقاتل في كتابه، فمراد أبي الدرداء رضي الله عنه تعدد وجوه الاحتمالات في الفهم للفظ الواحد في النص الواحد، لا أن اللفظ الواحد في النصوص المختلفة له عدة معانٍ بحسب السياق الوارد فيه، يُنظر: الوجوه والنظائر في القرآن العظيم، مقاتل بن سليمان البلخي، تحقيق: د.حاتم الضامن، مطبوعات مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث بدبي، ط1، 1426ه 2006م، ص19.

[2] المصنف، أبو بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت – لبنان، ط2، 1403ه، كتاب الجامع للإمام معمر بن راشد الأزدي رواية الإمام عبد الرزاق الصنعاني، باب العلم، ج11ص255 رقم الحديث: (20473).

[3] معالم التنزيل، البغوي، ج1ص46.

فمعرفة الوجوه الكثيرة للنص الواحد دلالة أكيدة، ومنزلة تليدة، لأهل الحق في إطالة عمر التدبر، وتطويل رقبة التفكر، وما تكاثرت تلك الوجوه والاحتمالات، إلا لأن صاحبها قد أوَّل المعاني وأرجعها، ثم أعاد الكرة فألحقها، فخرج له من ذلك كله مجموع من الوجوه هي في الألفاظ محتملة، وما أزال هيبة الإقدام على أحدها للترجيح إلا السياق، فكان التأويل الخلوُّ عن تدبر السياق بمجموعه دون التفريط بآحاده منهجاً يؤدي إلى ضعف الرأي، يقول شيخ المفسرين رحمه الله: "فالذي هو أولى بالآية أن يوجه تأويلها إليه، هو ما كان نظير قصة الآية قبلها والآية بعدها، إذ كان خبرها لخبرهما نظيراً وشكلاً، إلا أن تقوم حجة يجب التسليم لها بخلاف ذلك"[1]، ويقول: "فتوجيه الكلام إلى ما كان نظيراً لما في سياق الآية، أولى من توجيهه إلى ما كان منعدلاً عنه"[2]، فالتأويل السياقي منهج قد قطع شوطاً في كتب المتقدمين فضلاً على المتأخرين، وهو آلية تدبرية توصل الناظر إلى المعنى المقصود، وتبلغ به طمأنينةً وارتياحاً بما يحقق المأمول.

فالتأويل السياقي بهذا المفهوم يُلقي بظلاله الوافرة على مسلك بيِّن في التعامل مع النص القرآني للوصول إلى دائرة السلامة العلمية، ولن نبتعد كثيراً إذا فسرنا النص الموقوف على أبي الدرداء رضي الله عنه بأن رؤية الوجوه الكثيرة هي مرحلة التأويل، وترجيح أحد الوجوه أو ترجيحها مجتمعة - التي هي من قبيل التنوع الدلالي -، هي مرحلة التأويل السياقي، وبالتالي يكون التأويل الملحوظ فيه الآلية السياقية باعتبارها إنتاجاً جاداً للمعاني المرادة في النص، هو التأويل المطلوب للخروج من فوضوية التحليل والتفكيك، والابتعاد

---

[1] جامع البيان في تأويل آي القرآن، أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن غالب الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان، ط1، 1420هـ - 2000م، ج2ص522.

[2] جامع البيان في تأويل آي القرآن، الطبري، ج6ص91.

عن تكثير الاحتمالات غير المستندة إلى الدليل، وهو ما سيقودنا إلى عتبة النجاة وشاطئ الأمان، بما نأمل أن يكون لنا يوم القيامة نوراً مبيناً، وحجة ساطعة عند مولانا جل في علاه.

المطلب الثاني: مفهوم المقصد القرآني

مما أصبح بدهياً عند المتخصصين أن المقصد القرآني يأتي على مراتب ثلاث؛

الأولى: المقصد القرآني باعتبار الآية والمقطع.

الثانية: المقصد القرآني باعتبار السورة.

الثالثة: المقصد القرآني باعتبار القرآن الكريم في مجموعه المقاصدي.

والذي يعنينا هنا المرتبة الأولى وهي ما تخص جانب الآية والمقطع القرآني سواء أكان سورةً مقطعية أم مقطعاً من سورة، وعليه فسيكون حديثي عن المقصد القرآني بهذا الاعتبار، وسأبدأ بالمعنى اللغوي ثم أبني عليه المفهوم الاصطلاحي.

للقصد دلالة لغوية أفادتها كتب اللغة، جاء في العين في بيان معنى الاستقامة: "القصد استقامة الطريقة، وقصد يقصد قصداً فهو قاصد"[1]، وقال في بيان معنى وصول الهدف: "وصاب السهم نحو الرمية يصوب صيبوبة إذا قصد، وسهم صائب، أي: قاصد"[2]، ثم أوضح في موطن آخر بعبارة – أعُدُّها – احترازية فقال: "والخطل من السهام: الذي يذهب يميناً وشمالاً، لا يقصد قصد الهدف"[3]، وبالتالي نستطيع أن نبني على هذه العبارات اللغوية العتيقة، بأن القصد يجب أن يتوافر فيه ركنان؛ الاستقامة وبلوغ الهدف.

---

[1] العين، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق: د. مهدي المخزومي ود. إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، بيروت – لبنان، بدون طبعة أو تاريخ، ج5ص54.

[2] العين، الفراهيدي، ج7ص166.

[3] العين، الفراهيدي، ج4ص217.

بل إن صاحب تهذيب اللغة قد أضفى معنىً هادفاً في هذا المقام فعلل سبب تسمية القصيد من الشعر قائلاً: "لأن قائله احتفل له فنقحه بالكلام الجيد والمعنى المختار، وأصله من القصيد، وهو المخ السمين الذي يتقصد - أي: يتكسر - إذا استخرج من قصبه لسمنه، وضده الرار وهو المخ السائل الذائب الذي هو كالماء لا يتقصد، والعرب تستعير السمن في الكلام فتقول: هذا كلام سمين – أي: جيد - ومعنى سمين، وقالوا: شعر قصيد: إذا كان منقحاً مجوداً"[1]، فيكون القصيد في هذا النص بمعنى المفعول أي: المقصود؛ لأن المخ السمين هو الهدف المقصود، وكأني به يرمي إلى أن القصد لا يكون إلا للسمين النفيس، وأن التوافه لا تستحق أن تُقصد، ولهذا دلالة ضمنية في معنى القصد سنأتي عليها لاحقاً.

وقد اجتهد ابن فارس في معرفة ما يدل عليه هذا الأصل فقال: "القاف والصاد والدال أصول ثلاثة، يدل أحدها على إتيان شيء وأَمِّه، والآخر على كسر وانكسار، والآخر على اكتناز في الشيء"[2]، والأصلان الأخيران يحملان دلالة واحدة، فالكسر والانكسار ما كان إلا لبلوغ السمين المكتنز من القصب كما سبق بيانه في عبارة الأزهري، وحمل القصد على التكسر غير منسجم مع الدلالة العامة لمعنى القصد في العبارات اللغوية، فوقوف ابن فارس – على غير عادته - على الظاهر اللفظي أبعده عن بلوغ مقصد عبارتهم.

ويقول الخطابي: "وكل شيء مستوٍ غيرُ مسرف ولا ناقص؛ فهو قصد ومقصد"[3]، وعبارة الخطابي تدخل في بيان الشيء الموصوف بالقصد، كما جاء

---

[1] تهذيب اللغة، أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، ط1، 2001م، ج8ص274.

[2] معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، بيروت – لبنان، 1399هـ 1979م، ج5ص95.

[3] غريب الحديث، أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي، تحقيق: عبد الكريم إبراهيم العزباوي، الناشر: جامعة أم القرى، مكة المكرمة، 1402ه، ج1ص217.

عن أبي الطفيل في وصف النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "كان أبيض مليحاً مُقَصَّدًا"[1]، وهذا يزيدنا قصداً في التأكيد على أن الفعل والاسم كليهما يدخلان في كون القصد والمقصود نفيساً ذا قيمة عالية، وعليه فيكون القصد دالاً على الاستقامة في بلوغ هدف معتبر، هذا ما توحي به العبارات اللغوية، وهو ما أداني إليه اجتهادي بعد النظر في عبارات اللغويين.

وعليه فيكون القصد له دلالتان اثنتان، أما الدلالة الأولى فهي دلالة الشيء المقصود، والدلالة الثانية فهي دلالة الطريق القصد؛ كما قال سبحانه: {وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ} [النحل:9]، فالسبيل هنا الطريق الموصلة إلى الهدف، والقصد الاستقامة فيها[2] دون الخطل، وهي أصل في طلب صحة المنهجية الموصلة إلى استنباط الأحكام المعاني القرآنية، وهاتان الدلالتان متكاملتان، فالطريق القصد هو الموصل دون غيره إلى المقصود، وفي بحثنا هذا سيكون المقصد القرآني هو الشيء المقصود بالبيان والإظهار على معنى الدلالة الأولى، والتأويل السياقي هو الطريق القصد على معنى الدلالة الثانية، وبناءً على ما تقدم يكون مفهوم المقصد القرآني: المعنى الأصيل المراد في النص، المنساقة بقية المعاني له.

وهنا قضية نعرض لها عرضاً موجزاً وهو أن القرآن قد ذكر موقف المنافقين من السور القرآنية، وهذا الموقف مرتبط بعقلية النفاق في التعامل مع مقصود السور عند نزولها، ولنقرأ قوله تعالى في سورة التوبة: {وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (124) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا

---

[1] صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، كتاب: الفضائل، باب: كان النبي صلى الله عليه وسلم أبيض مليح الوجه، ج4ص1820، رقم الحديث: (2340).

[2] فتكون الإضافة حاملةً معنى الظرفية، أي: قصد في السبيل.

وَهُمْ كَافِرُونَ (125) أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ (126) وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (127)}، فالقرآن له مقصود من نزول سوره يتحدد ضمن معطيات الزمان والأحوال، وقد عقل ذلك المنافقون وفهموا أنهم مقصودون بالمعالجة وإقامة الحجج والبراهين والأدلة، وسبقهم إلى ذلك المؤمنون بوصفهم: {فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (124)}، فنزول السور القرآنية يأتي تباعاً في المعالجة، وتدرجاً في البناء، حتى يستوي الأمر على سوقه، فتتم النعمة العظمى، وتكتمل المنة العليا، بما هو غير مسبوق في منهجيات الخطاب، وطرق التلقي والفهم، وهو ما يعطينا جرعة علمية قوية في المحاولة الجادة لفهم معطيات القرآن في الواقع الذي نعيش، وبما يكون لنا مستنداً ثابتاً في القدرة على تجاوز الموروث الثقافي الذي أثقل العقل المعاصر بكثرة النقول، التي أخذت طابع القداسة أحياناً، حتى باتت شبيه المقدس في نظرياتنا، والمقدس في تطبيقاتنا، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

المطلب الثالث: التفريق بين المقصد والموضوع

شاع في بعض كتب التفسير أنهم يذكرون أغراض السور وموضوعاتها، وما ترشد إليه من أصول المعاني، ولا يخفى أن هذا الصنيع يدل على استقراء للمعاني الفرعية والرئيسة الواردة في السورة، ولا يخفى كذلك أن هذا الصنيع يدل على عدم ربط الموضوعات لإبراز المقصد الأساس الرئيس الذي دارت في فلكه السورة، بل يدل على أن الهمم قد توجهت لإبراز المعاني وترتيبها ترتيباً رقمياً، وهي بذلك تكون قد ضيَّعت مجالاً خصباً من العمل، ومنجماً لا ينضب من الدراسات السياقية التأويلية التخصصية، إذ المطلوب من الدراسات المتخصصة في هذا العصر أن تركز جهودها صوب بيان دقة المقصد القرآني في إبراز المعاني والدلالات المرادة، في مدارها المقاصدي؛ لأن الهدف يكمن في

تحديد الحقيقة المرادة زمن نزول النص، وقدرة النص حينئذٍ على المعالجة المضمونة ضمن مقاصديات النصوص النازلة.

ويفترق المقصد القرآني عن الموضوع القرآني بأن الثاني ليس مقصوداً أصالةً كما هو الأمر في المقصد القرآني، فالموضوع خادم والمقصد مخدوم، ومثاله ما جاء في سورة الأنعام: {وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ}[121]، فهذه الآية جاءت لمقصد معين وهو ترك ما كان يصنعه المشركون في الأنعام، ولا أحد يُنكر أنها تطرقت لموضوع فقهي وهو حكم أكل ما لم يُذكر اسم الله عليه والذابح مسلم، ففرق بين المقصد الأصيل وبين ما تطرقت إليه الآية من موضوعات.

وبيان ذلك أن الآية جاءت في مقطع قرآني وهو قوله تعالى: {فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ (118) وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ (119) وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ (120) وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ (121)}.

يعالج هذا المقطع القرآني قضيةً من قضايا المجتمع الجاهلي، ألا وهي أكل ما لم يذكر اسم الله عليه، وهي قضية سلوكية مرتبطة بالتصور الجاهلي للآلهة بشكل مباشر، وبتحايل خدم الأصنام والملأ المنتفعين من هذا التصور المبني على الخرافة الوثنية بشكل ضمني، وعليه فهذا المقطع جاء لعلاج إحدى ظواهر الشرك العام، وإحدى ظواهر التحايل الخاص، فهذه هي القضية الأساس التي يجب تركيز الفهم في مدارها لفهم أبعادها، ودور التأويل السياقي في إبراز المقصد الذي لأجله كانت هذه الآيات في هذا السياق بالتحديد.

هذا وقد وقف الفقهاء مع هذه الآيات في بيان حكم أكل ما لم يُذكر اسم الله عليه نسياناً، والحق أن وقفتهم لا تعلق لها بالآية إلا استئناساً، فالآية تتحدث عن حكم سلوكي مرتبط بتصور عقدي، لا عن حكم سلوكي مرتبط بسلوك آخر، وجاءت لرفض ذكر اسم الصنم على الذبائح واستبدال ذلك بذكر اسم الله عليه توحيداً في شكره وحمده على نعمه، فهذا هو المقصد لهذا النص القرآني، الذي يعالج الواقع الجاهلي ويقيم حرباً لا هوادة فيها، بل لا يدخل في الآية حكمُ أكل الميتة وغيرها مما حرم أكلُه؛ لأنه "إنما يعني: مما أحل الله أكله؛ لأنه لو ذبح ما حرم الله عليه وذكر اسمَ الله عليه، لم يُحل الذبيحةَ ذكرُ اسم الله عليه"[1]، وبهذا تتبين خصوصية المقصد القرآني في علاج ظاهرة وثنية في التصور الجاهلي، لا في بيان حكم ما ذكر اسم الله عليه مما لم يذكر اسم الله عليه، وبالتالي فيجب أن ننظر لهذا النص من هذه الزاوية ونركز أنظارنا حوله، لا أن نتجاوز مقصده الدلالي لدلالات أخرى ارتبطت بالموضوع لا بالمقصد، فالمطلوب هو التركيز في قراءة التحليل والاستنباط على مقاصد النصوص لا على موضوعات النصوص، فمقاصد النصوص هي الأساس في باب التفسير والتحليل، وموضوعات المقاصد هي الاستئناس في الفهم والبيان، ولا يعينك على ذلك شيءٌ كالتأويل السياقي.

وكذلك فإن الموضوعات القرآنية تخدم المقصد القرآني بصور كثيرة؛ كأن تشكل في مجموعها المقصد القرآني، أو يكون المقصد أحد الموضوعات المطروحة لكنه الأبرز فيها، كما تَمَثَّل ذلك في السور المكية التي أتت على موضوعات القيامة والبعث والحساب والجزاء لتجعل منها أجزاء وأعضاء لمقصد محدد، كما سيأتي تفصيل ذلك في الدراسة التطبيقية.

---

[1] الأم، أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي، دار المعرفة، بيروت – لبنان، 1393ه، ج2ص249.

المبحث الثاني:الدراسة التطبيقية في بيان منهجية التأويل السياقي في تحديد المقصد القرآني

تناولت في هذا المبحث دراسة تطبيقية شملت بعض السور المكية التي تناولت موضوعات القيامة والبعث والحساب والجزاء، وهذه الموضوعات شكلت مقصداً محدداً لكل سورة باعتبارها الإفرادي، وهي بذلك تبرز المقصد من خلال الموضوعات بشكل تفصيلي ومركَّز، ومنهجيات البحث في التفسير الموضوعي المعاصرة تناولت هذا المسار ببعده الموضوعي، أي في بيان الموضوعات مجتمعة في سورة، فيقولون مثلاً: موضوع هذه السورة القيامة والبعث والحساب والجزاء، أو يقولون: اشتملت هذه السورة على الموضوعات الغيبية وهي القيامة والحساب والجزاء والبعث، ولم يلتفت كثيرٌ من الباحثين المعاصرين إلى أن بسط التفسير على مائدة البحث العلمي وفق هذه الطريقة يقلل من القيمة العلمية التخصصية، وأن الواجب عليهم بيان تركز كتلة المعاني في السورة أو المقطع، وبيان تشابك خيوط المعاني المنسوجة والمفصلة على علم الله تعالى لبيان التدرج في تغيير التصور الوثني إلى الدار الآخرة.

ومن خلال دراستي لمجموعة من السور المكية المتحدثة عن هذه الموضوعات وجدتها سوراً قد اختص كلٌّ منها بمقصد خاص، فوجدت أن منها ما اختص ببيان مقصد القيامة، ومنها ما اختص بالبعث، ومنها ما اختص بالحساب، ومنها ما اختص بالجزاء، وإن اشتملت في مجموعها على الموضوعات جميعها تصريحاً أو تلويحاً، فالعبرة كامنة في أن هذه السور إنما نظمت لمجموعة من المعاني مرادة لتحقيق مقصدٍ في نفوس المتلقين، وهو ما يتناسب مع الدراسة الرشيقة لفهم نفسيات المخاطَبين عند نزول القرآن، وطبيعة الخطاب في مقصده الكلي، وكيفية تغيير الأفكار المتوارثة في بعدها التدريجي، والذي يراه الباحث أن السور المكية قد عالجت التصور الوثني المبني على الشرك والخرافة بطريق تدريجي، فمهدت للعقيدة المتجددة، وأرست قواعد

التفكر والتدبر، ووجهت العقل لزوايا التفكير المنتجة في المآل، للوصول بالإنسان إلى القدرة على التفكير باستقلالية دون وجود القيود المانعة من التأمل المطلوب، وهذا ما يجب على الباحثين المعاصرين سلكَه؛ للإفادة من القرآن في بناء طرق التفكير في التخصص العلمي المطلوب.

والذي نراه في هذه الأيام أن أدوات البحث العلمي التحليلي المتسم بمقاصدية النص القرآني قد نأت عن هذا المشهد حضوراً وفاعلية، وتركيز الباحثين على المنهجيات المبتورة عن التأويل السياقي أدَّى إلى سيطرة السطحية البحثية، والجمع اللامُركز، وبالتالي النتيجة غير الفاعلة في معترك الحياة العلمية للأمة.

وسأقف في هذه الوريقات المختصرات مع منهجية محددة في التعامل مع التفسير الموضوعي وذلك ببعده المقاصدي، وبيان الفرق تطبيقياً بين الموضوع القرآني والمقصد القرآني، حيث إن المقطع القرآني له مقصده الخاص، وهذا المقصد لا يتبين من خلال النظر في الموضوع نظرة مجتزأة عن الدراسة السياقية الجادة، بل يتبين من خلال تركيز الضوء على الهدف الأصيل من سياقة المعاني في ألفاظها، واختيار الأسلوب الأنسب في طرح المعنى ضمن مجموعة من البينات الدلالية التي تنادي على الباحث ليعمق نظره بأبعادها، وكان اختياري واقعاً على السور المكية التي تناولت القيامة والبعث والحساب والجزاء جميعها موضوعاً للمقطع الواحد، وافترق الأمر في المقصد فحصل الافتراق المقاصدي بعد ذلكم الالتقاء الموضوعي، وستكون الدراسة التطبيقية في أربعة مطالب، وهي القيامة والبعث والحساب والجزاء.

المطلب الأول: القيامة

سأتناول في هذا المطلب سورة التكوير التي تُمثِّل مقصد القيامة، فإذا نظرنا في هذه السورة وجدناها قد اشتملت مجموعةً من الركائز الدلالية التي كانت بمجموعها متمحورة حول مقصد واحد في مقطعين اثنين، وهما:

المقطع الأول: {إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (1) وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ (2) وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ (3) وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ (4) وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ (5) وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ (6) وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ (7) وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (8) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ (9) وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ (10) وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ (11) وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ (12) وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ (13) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ (14) }

فهذه الآيات قد تركز الحديث فيها حول أهوال حدث القيامة من حيث هي أهوال تبعث في النفس خوفاً وهلعاً لما سيصير إليه شأن النهاية، والملاحظ أن زمان الآيات الست الأولى قبل البعث، وقد أشارت الآية السابعة: {وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ} إما إلى الجزاء على ما هو منقول عن عمر رضي الله عنه[1]، وإما إلى البعث على ما هو منقول عن عكرمة رحمه الله تعالى[2] وهو الأنسب سياقياً، فهي تهيئ السامع إلى ما سيكون بعد هذه الأهوال - ومما سيأتي تفصيله في سور أخرى[3]-، واختير قوله تعالى: {وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ} لأن سؤال الموءودة عن سبب قتلها من أشد ما يقع على نفس القاتل من أهوال فالبعد هاهنا نفسي، وهو ما يتناسب مع أهوال القيامة، "وبمناسبة ذكر تزويج النفوس بالأجساد خص سؤال الموءودة بالذكر دون غيره مما يسأل عنه المجرمون يوم

---

[1] جامع البيان في تأويل آي القرآن، الطبري، ج24ص245.

[2] جامع البيان في تأويل آي القرآن، الطبري، ج24ص246.

[3] ذكر الزركشي أن سورة التكوير هي السورة السابعة في النزول، وهذا يعني أنها السورة الأولى التي تحدثت عن أهوال القيامة تفصيلاً مقصوداً، ينظر: البرهان في علوم القرآن، أبو عبد الله محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت - لبنان، 1391ه، ج1ص193.

الحساب"[1]، ثم نشر الصحف وكشط السماء وإزالتها، ثم بعد ذلك جحيم تسعر وجنة تُقرَّب.

والملاحظ أن هذا المقطع قد تركز في كتلته الدلالية على أن لهذه الدنيا نهايةً محتومة، بقطع النظر عن إثبات حقيقة البعث وموقف القرآن من المنكرين ومناقشتهم في ذلك، وإنما هو عرض لذلكم الموقف العظيم بأهواله وصفاته، لمقصدية زرع ثقافة القيامة وحتميتها في نفوس المشركين وعقولهم، بحيث تصبح أمراً ثابتاً لا مرية فيه، وهي بذلك تمهد لحقيقة بعث الأجساد بعد موتها للحساب والجزاء؛ وكأني بهذه السورة التي لفتت الأنظار إلى الأهوال، ثم بعد ذلك عرضت للبعث إشارة، وركزت في ذلك على الموءودة لوقعها على نفوس الوائدين، ولغفلتهم عن محاسبتهم عليها، وهي بذلك تمرر عليهم وهم في دهشة من أمرهم حقيقة البعث والحساب، ليختتم المقطع بقول الحق سبحانه: {عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ}.

ثم يأتي المقطع الثاني: {فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ (15) الْجَوَارِ الْكُنَّسِ (16) وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ (17) وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ (18) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (19) ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (20) مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (21) وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ (22) وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ (23) وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ (24) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ (25) فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ (26) إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (27) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ (28) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (29)}.

وفي هذا المقطع الذي تتسم بدايته بالتلميح الدلالي للقيامة ونهاية العالم من جري النجوم لميعاد موقت، بعد أن كان المقطع الأول شديد الصراحة في ذلك، وهو الأنسب بطبيعة المخاطبين المنكرين، وهذا المقطع يتمم مقاصدية المقطع الأول، وهو أن لهذه الحياة الدنيا نهاية تسير إليها، وذلك بأسلوب القسم بالنجوم

---

[1] التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت – لبنان، ط1، 1420هـ2000م، ج30ص128.

التي تعكس حالة توالي الزمان وجريانه لنقطة زمانية محددة، ويكون الجواب هو حقيقةَ الوحي، فيكون المقطع الأول لبيان أهوال القيامة وحتمية النهاية، والمقطع الثاني لبيان حتمية النهاية وأحقية الوحي والرسالة، وبذلك تُنَزِّل السورة أحقية الوحي وصدق الرسول منزلةَ حتمية النهاية، فيتضافر المقطعان في مقاصدية السورة وهو صدق وقوع القيامة بأهوالها وصفاتها المذكورة عن طريق الوحي.

وسأقف في هذه السورة مع قوله تعالى: {فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ * الْجَوَارِ الْكُنَّسِ} [التكوير:15-16] وقفة مقصودة؛ لأبين ضعف ما ذهب إليه بعض المعاصرين في تفسير لفظي الخنس والكنس الوارد ذكرهما في الآية إلى النظرية القائلة بالثقوب السوداء، الرأي الذي يخدش مقصد السورة، هذا وقد حمل لواء هذا الزعم الدكتور زغلول النجار، حيث قال بعد أن أورد أقوال اللغويين في بيان الخنس والكنس: "وعندي أن الكنس هي صيغة منتهى الجموع للفظ كانس، أي: قائم بعملية الكنس، وجمعها كانسون، أو للفظة كناس وجمعها كنَّاسون، والكانس والكناس هو الذي يقوم بعملية الكنس، أي: سفر شيء عن وجه شيء آخر وإزالته"[1]، وقال: "الوصف القرآني بالخنس يعني الاختفاء الكامل، ولا يعني الظهور ثم الاختفاء"[2].

وقال: "أرى الوصف في هاتين الآيتين الكريمتين: {فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ * الْجَوَارِ الْكُنَّسِ} ينطبق انطباقاً كاملاً مع حقيقة كونية مبهرة تمثل مرحلة خطيرة من مراحل حياة النجوم يسميها علماء الفلك اليوم باسم الثقوب السود"[3].

---

[1] السماء في القرآن الكريم، زغلول راغب محمد النجار، دار المعرفة، بيروت – لبنان، ط3، 1426ه 2005م، ص214.

[2] السماء في القرآن الكريم، زغلول النجار، ص216.

[3] السماء في القرآن الكريم، زغلول النجار، ص215.

وما ذهب إليه الدكتور زغلول النجار حفظه الله يتعارض تعارضاً بيناً مع المقصد القرآني لهذه السورة، فضلاً على جنوحه عن المعنى اللغوي الذي يقرره علماء اللغة والبيان، ولنفر إلى الثانية ثم نكر على الأولى.

ولنبدأ ببيان معنى الخنس، اتفق اللغويون على أن أصل هذه المادة هو "انقباض قصبة الأنف وعرض الأرنبة؛ كأنف البقرة الخنساء"[1]، ثم قالوا بأن معنى الخنوس: الاختفاء، وقالوا: إن الخنس في الآية هو اختفاء الكواكب[2]، والقول بأن الخنس هو الاختفاء الكامل قول خالٍ من الدليل، وكيف يصنع بقوله تعالى في وصف الوسواس بأنه الخناس؟؟!! ولو كان كذلك لارتاحت البشرية من وسوسته.

وأما الكنس فأصله: "مولج للوحش من البقر يستكن فيه من الحر والصر ثم يذهب إذا أمسى؛ فإذا صار مألفاً فهو تولجه .. وقوله جل ذكره: {الْجَوَارِ الْكُنَّسِ} النجوم التي تستمر في مجاريها، وتكنس في مخاويها أي: مغايبها ومساقطها"[3]، فالكانس: "الظبي يدخل في كناسه، وهو موضعه في الشجر يكتن فيه ويستتر"[4]، والقول بأن الكنس هو سفر شيء عن وجه شيء آخر وإزالته، فهو معنى مترتب على المعنى الأصلي وهو دخول الموضع الذي يختبئ فيه عن الأعين، فإذا دخل أخرج الأتربة وما شابهها ليستقر في مكانه دون أن يكون هناك ما يضايقه، لا أن الإزالة هي المقصودة من هذا اللفظ في أصل الوضع اللغوي، وإنما هو الاستقرار والاختباء.

---

[1] العين، الفراهيدي، ج4ص199.

[2] يُنظر: تهذيب اللغة، الأزهري، ج7ص81، وغريب الحديث، أبو إسحاق إبراهيم بن إسحاق الحربي، تحقيق: د.سليمان إبراهيم محمد العايد، جامعة أم القرى - مكة المكرمة، ط1، 1405ه، ج3ص1039.

[3] العين، الفراهيدي، ج5ص312.

[4] تاج اللغة وصحاح العربية، إسماعيل بن حماد الجوهري، دار العلم للملايين، بيروت – لبنان، ط4، 1990م، ج4ص109.

وهنا تظهر إشكالية لغوية ينأى عن مثلها الأسلوب القرآني، وهو أن لفظ الخنس والكنس يؤدي معنى واحداً مكروراً وهو الاختفاء، وهو ما أراده د. زغلول النجار إضعافاً لهذا الرأي؛ فقال: "ولا يُعقل أن يكون المعنى المقصود في الآية الكريمة للفظة {الْكُنَّسِ} هي المنزوية المختفية، وقد استوفى هذا المعنى باللفظ {الْخُنَّسِ}"[1].

والذي يذهب إليه الباحث أن لفظ الخنس يدل على الرجوع لا على الاختفاء، فهو رجوع الكواكب للظهور في الليل بعد كنوسها في النهار، وهو الأنسب للسياق: {وَاللَّيْلِ إِذا عَسْعَسَ * وَالصُّبْحِ إِذا تَنَفَّسَ}، فتقدم ذكر الليل على الصبح، وفي الليل ترجع الكواكب للظهور، كما أنه في تنفس الصبح تختفي عن الأنظار، ولعل ما كتبه جار الله في أساسه فيه ما يعيننا على تقوية هذا المعنى حيث يقول: "ومن المجاز: خنس الكوكب: رجع، {فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ}"[2]، وما شاع عند اللغويين ليس بحجة استقرائية في هذا الباب، يقول أبو بكر الأنباري: "والخنس تأخر الأنف في الوجه، يقال للبقرة: خنساء؛ لتأخر أنفها في وجهها"[3]، وهذا التأخر في حقيقته رجوع إلى الوراء لا خفاء، بل إن القرآن قد أشار إلى معنى الرجوع في قوله سبحانه: {مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ} [الناس:4]، فالخناس الذي يرجع للوسوسة بعد اختفائه بسبب غفلة العبد عن ذكر الله تعالى، وعليه فمعنى الاختفاء حاضر والمقصود الرجوع

---

[1] السماء في القرآن الكريم، زغلول النجار، ص214.

[2] أساس البلاغة، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، تحقيق: عبد الرحيم محمود، دار المعرفة، بيروت – لبنان، ص121.

[3] الزاهر في معاني كلمات الناس، أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري، تحقيق: د. حاتم صالح الضامن، مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان، ط2، 1412هـ 1992م، ج1ص326.

للوسوسة وبه يظهر معنى وصف الوسواس بالخناس[1]، ومعناه في الآية أن النجوم ترجع للظهور في الليل على وجه الخصوص، وأما الكنس فهو يدل على الاختفاء نهاراً على وجه الخصوص لحظاً لأصل المعنى.

وعليه فإن المعنى المقصود في الآية هو أن النجوم تظهر ليلاً، وهي تمثل حالة الرجوع بعد الغياب، ومن تأمل السماء عند المغيب استشعر دقة هذا المعنى، ثم عند تنفس الصبح وهجوم أشعة الشمس تكنس في مخبئها، وبذلك الظهور بعد الاختفاء والاختفاء بعد الظهور تجري النجوم لغاية زمانية أرادها خالقها سبحانه وهي القيامة، وبالتالي فإن السياق من بداية السورة يتحدث عن أهوال القيامة، فمن المناسب تماماً أن يقفل تلك الاهوال بقفل محكم الدلالة في بيان أن الكون كله يجري لغاية محددة؛ لتناسب مطلع السورة في تكور الشمس الذي به يتوقف الكنس، وبانكدار النجوم التي تمثل الحالة الزمانية المقصودة؛ ليستقيم المعنى السياقي وفاق المقصد القرآني وهو أن للسورة مقصداً واضحاً بيناً وهو نهاية العالم، وأن الرسالة جاءت لإنقاذ البشرية من عاقبة النهاية المحتومة.

والذهاب إلى القول بالثقوب السود يخدش هذا المقصد، إذ إنه ينأى بمقصدية إبراز المركزية الدلالية للقيامة بعيداً؛ للقول بأنه يوجد في السماء ثقوب سود تبتلع النجوم الميتة، بل إن هذا القول يربك القارئ عن تدبر المقصد الدلالي بسبب التركيز على المعاني المرجوحة، وتناسي قوة التأويل السياقي في إظهار المقصد الدلالي في السورة الواحدة ذات المقطع الواحد.

---

[1] التبيان في إعراب القرآن، أبو البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري، تحقيق: إبراهيم عطوه عوض، الناشر عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، ط2، 1389ه 1969م، ج2ص298.

المطلب الثاني: البعث

سأتناول في هذا المطلب سورتين اثنتين تتحدثان عن البعث، وهما سورة الطارق وسورة الزلزلة، وسأبدأ بسورة الطارق، وهي من السور التي تخلصت لمقصد البعث، وقد عالجت البعث من زاوية خاصة وهي القدرة على البعث قياساً على القدرة على الخلق، فأعملت العقول في التفكر في الإعادة بعد الإماتة، وأبانت أن محاربة هذه الحقيقة شكل من أشكال الكيد للدعوة، من أصحاب النفوذ المستفيدين من محاربة هذه الحقيقة، وهم أولئك الفئة التي توحي إلى أوليائها ليجادلوا المؤمنين في كتابهم.

والسورة من مطلعها تمهد لهذه الحقيقة: {وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ (1) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ (2) النَّجْمُ الثَّاقِبُ (3)}، هذا وقد ذهب المفسرون إلى تفسير الطارق بالنجم الذي يثقب ضوءه عتمة الليل، وعيَّنه بعضهم بالثريا وبعضهم بزحل[1]، والحق أن في نفسي شيئاً من هذا التفسير وإن قال به المفسرون قاطبة، وليست المخالفة في هذا الباب من دواعي سروري وامتناني بقدر ما هي حشرجة في صدري أرى ضرورة بثها، وذلك أن تفسير الطارق بالنجم الذي يظهر ليلاً لا تكتنزه الدلالة، ولا تملأ جوانبه أبعاد العبارة، وما قيل بهذا القول عند المفسرين إلا لأنه المنقول الوحيد عن المتقدمين، أي: تفسير الثاقب بالمضيء، وإن كان قد نقل الطبري عن عكرمة رحمه الله تعالى إطلاق العبارة في ذلك فقال: "الذي يثقب"[2]، ولم يعين ثقب ماذا؟

ولكي لا أركب متن المخالفة لما عليه أهل العلم من المفسرين، ولكي لا أقع في ملامة أهل العصر المقلدين؛ فإني أجمع بين قول المتقدمين وما أستريح إليه، وهو أن المقصود بالنجم الثاقب هاهنا تساقط النجوم يوم القيامة التي من شأنها أن تثقب الغلاف الجوي، وعليه فالذي يفسر معنى النجم الثاقب هنا ما

---

[1] جامع البيان في تأويل آي القرآن، الطبري، ج24ص352.

[2] جامع البيان في تأويل آي القرآن، الطبري، ج24ص352.

جاء قوله تعالى: {وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى} وهو من بيان القرآن بالقرآن، أي: إذا سقط يوم القيامة، لا أن المراد بهوى: غروب النجم واختفاؤه فحسب[1]، ويكون الجمع بين القولين هو أن نقول: إن المفسرين ذهبوا إلى أن النجم الثاقب هو المضيء، وهذه حالة زمانية يعهدها البشر، ولهذه الحالة الزمانية انتهاء به تقوم الساعة، فيكون المذكور عند المفسرين المعنى الظاهر الآني، ومآله الثاقب للغلاف الجوي وهي حالة الثقب النهائية للكون، فإنه تتوالى عليه هذه الحالة الزمانية المتكررة، حتى يفنى بثقبه للغلاف الجوي وبه تقوم القيامة، وعليه يُحمل قوله تعالى: {وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى}، بتكرر حالة الغروب والأفول اليومية، حتى يأتي الأفول النهائي وبه يتحقق الهوي والسقوط المطلق الذي هو عبارة عن يوم القيامة، وتكون صفة النجم بالهاوي اليومي في بداية اليوم، وبالثاقب اليومي في نهاية اليوم على قول المفسرين، تفسيراً للحالة التي يمر بها النجم في الحياة الدنيا، وهذان الوصفان يتفقان مآلاً يوم القيامة بالهوي أولاً وبالثقب ثانياً، وهي إشارة قارعة لمن تأمل وتدبر.

وهو ما يتناسب مع الأسلوب القرآني في السور المتحدثة عن القيامة من مثل قوله تعالى: {الْحَاقَّةُ (1) مَا الْحَاقَّةُ (2) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ (3)}، وقوله تعالى: {الْقَارِعَةُ (1) مَا الْقَارِعَةُ (2) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ (3)}، وكذلك أمر آخر يجب الالتفات إليه وهو أن الطَّرْقَ صوت النجم إذا طرق، والتفسير عند المتقدمين تفسيرٌ لا يتم إلا بالرؤية، أي رؤية الإضاءة ليلاً، وحمل اللفظ على الظاهر أولى من تأويله من غير دليل، فالطارق هو النجم الذي سيصدر عنه

---

[1] جاء في أضواء البيان: "فمعنى هوى النجوم سقوطها إذا غربت، أو انتثارها يوم القيامة"، يُنظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، 1415هـ 1995م، ج7ص463، والمفسرون يؤثرون أن تكون عبارتهم اللفظية المفسِّرة لهوى: سقط مع الفجر أي: اختفى؛ كما هو منقول عن مجاهد رحمه الله تعالى، كي يتقارب مع لفظ هوى، يُنظر: جامع البيان، الطبري، ج22ص495.

صوت الطرق، وهذا الصوت سيتحقق يوم القيامة، إذ سيطرق باب السماء تلك النجوم لتفتت الأرض وما عليها، وهو ما يساعدك على فهمه تمام الفهم قوله تعالى في سورة النبأ: {وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا (19)}، أي بعد طرقها، وهو بيان قرآني ببيان قرآني، فهناك طارق على باب السماء، وهناك من سيفتح ذلك الباب، ولا أرى أن ظاهر اللغة إلا مسانداً لهذا التأويل، وكذلك إذا ضممنا الشواهد القرآنية بعضها إلى بعض نجدها متناغمة حول هذا الفهم، وأكرر أنه ليس من شأني مخالفة المتقدمين، بقدر ما من شأني أن أعبد الله سبحانه وتعالى من خلال فهم مقصده ومراده من كلامه، والسؤال يوم القيامة عن يقين قلوبنا لا عن تقليد آبائنا كما هي منهجية العرب قبل نزول القرآن.

ثم يأتي قوله سبحانه: {إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ (4) فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ (5) خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ (6) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (7)}؛ لتحريك العقول في التفكير بقدرة الخالق سبحانه على الإنشاء والخلق أولاً، ثم البعث ثانياً: {إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ (8) يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ (9) فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ (10)}، وبعد ذلك يقسم سبحانه ببعض مظاهر الكون المرتبطة بخيوط حقيقة البعث، لتقوية المقايسة في العقل البشري: {وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ (11) وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ (12) إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ (13) وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ (14) إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (15) وَأَكِيدُ كَيْدًا (16) فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا (17)}، وأدمج في هذه المقايسة امتنانه سبحانه وتعالى، بأن أنزل لهم الماء من السماء ولتصدع الأرض بالنبات.

وقد عدل سبحانه عن وصف الكافرين بالمكذبين – على أنهم مكذبون بالبعث – إلى وصفهم بالكائدين وذلك لزعزعة حقيقة التكذيب، وأن التكذيب ما كان عن قناعة موضوعية صادقة، وإنما هو كيد لمآرب أخرى، وبالتالي تكون هذه السورة قد تناولت البعث باعتباره حقيقة متنازع عليها إثباتاً ونفياً، وأن النافين إنما ينفون كيداً ومكراً وما يكيدون الآخرين إلا خوفاً على مصالحهم، وهي بذلك تكون قد ألمحت إلماحة قوية في ثنايا انتقائها للألفاظ والأساليب

بأن المقصود من إنكار البعث هو الكيد والمصادَّة، وهي حقيقة عجز أولئك عن صدها أمام الأمر الواقع، وأمام سياسة القرآن ورعايته في إنزال سوره ضمن مقاصد مرادة من منزله جل في علاه، لبناء ثقافة التدرج في التعامل مع الأفكار المخالفة، وفي التعامل مع منهجيات العداوة الفكرية والثقافية والعقدية، ضمن أبدع منهج أراده الله سبحانه وتعالى في كلامه الثابت.

وسأنتقل هنا إلى سورة أخرى تتحدث في موضوعها العام عن القيامة والبعث والحساب، وهي متأخرة في نزولها عن سورة التكوير حتى قيل بمدنيتها وهو قول يرجحه بعض المفسرين[1]، وهي سورة الزلزلة التي أبرزت البعث بصورة موجزة ومعمقة الدلالة، وتأويل السورة من مطلعها حتى ختامها يوقفك على هذه الحقيقة، فابتدأت السورة بزلزلة الأرض التي عبر عنها القرآن بطريقة المعهود الذهني لدى المخاطب فقال سبحانه: {زِلْزَالَهَا} ولم يقل: زلزالاً شديداً؛ لتنبيه الأذهان إلى زلزال خاص بالأرض غير مستنكر عند المخاطبين معروف بفطرهم وثنايا عقولهم، وفائدة ذلك تنزيل المخاطبين منزلة المقرين بيوم الزلزلة لنقلهم من دائرة الإقرار الذهولي إلى دائرة الإقرار التأملي في مآل أحوالهم في ذلك اليوم، وهو البعث المعبر عنه بإخراج الأثقال؛ لتركيز قوى

---

[1] يقول ابن عاشور: "واختلف فيها؛ فقال ابن عباس وابن مسعود ومجاهد وعطاء والضحاك: هي مكية، وقال قتادة ومقاتل: مدنية، ونسب إلى ابن عباس أيضاً. والأصح أنها مكية، واقتصر عليه البغوي وابن كثير ومحمد بن الحسن النيسابوري في تفاسيرهم"، وهو الصحيح لأمور؛ أولاً عالجت السورة البعث وهو من المسائل التي عُنيت بها السور المكية عموماً، ثانياً إيقاع السورة وجرسها وجزالتها الأسلوبية ووجازتها اللفظية تُساند القول بمكيتها، ثالثاً خلو الدليل عند القائلين بمدنيتها إلا بعض الروايات الواردة عن ابن عباس رضي الله عنهما، وهناك من الروايات عنه كذلك في مكيتها، وعند التساوي يتلاشى الدليل، يقول سيد قطب: "ونحن نرجح الروايات التي تقول بأنها مكية، وأسلوبها التعبيري وموضوعها يؤيدان هذا"، يُنظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ج30ص431، وفي ظلال القرآن، سيد قطب إبراهيم، دار الشروق، بيروت – لبنان، ط17، 1412هـ، ج6ص3954.

الأفهام إلى أن الثقل هاهنا هو المقصود الأول للزلزلة، والقول بأن المقصود بإخراج الأثقال هنا إخراج الكنوز قول يخلو من كنوز المعاني وجواهر الدلالة؛ لأنه يثقل السورة بمعانٍ غير خادمة لمقصود السورة.

يقول أبو عبيدة: "إذا كان الميت في بطنها فهو ثقل لها، وإذا كان فوقها فهو ثقل عليها"[1]، ويقول الطبري: "وأخرجت الأرض ما في بطنها من الموتى أحياء"[2]، وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد[3]، وقال الزمخشري: "جعل ما في جوفها من الدفائن أثقالاً لها"[4]، وقد ذهب عطية إلى أن الأثقال ما في الأرض من الكنوز والموتى[5]، وقال الزجاج: "أخرجت كُنوزها وموتاها"[6]، وقد رَدَّ هذا القول - وهو حريٌّ بالرد - ابنُ عطية فقال: "وليست القيامة موطناً لإخراج الكنوز"[7].

---

[1] مجاز القرآن، أبو عبيدة معمر بن المثنى البصري، تحقيق: محمد فؤاد سزكين، مكتبة الخانجي، مصر، 1381هـ، ج2ص306.

[2] جامع البيان في تأويل آي القرآن، الطبري، ج24ص547.

[3] جامع البيان في تأويل آي القرآن، الطبري، ج24ص547.

[4] الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، ج4ص790.

[5] تفسير القرآن العظيم، أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس ابن أبي حاتم الرازي، تحقيق: أسعد محمد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الباز، المملكة العربية السعودية، ط3، 1419هـ، ج10ص3455.

[6] معاني القرآن وإعرابه، إبراهيم بن السري بن سهل أبو إسحاق الزجاج، تحقيق: عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب، بيروت – لبنان، ط1، 1408هـ 1988م، ج5ص351.

[7] المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط1، 1413هـ 1993م، ج5ص481.

وسؤال الإنسان: {مَا لَهَا}؟ عقب إخراج الأثقال دليل على أنه الثقل الباطن، وبخروجه بادر إلى السؤال على عادته العجولة، ويأتي جواب {إِذا} {تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا} وهو زمان تحديث الأرض أخبارها بأن الله أمرها بالتخلص من ثقلها الباطن الذي هو عبارة عن بعث الإنسان، الذي ينكره الجاهليون وينكرون تبعاته من الحساب، ولا يصح ما ذهب إليه المحاسبي في قوله: "{وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا}؟ ولم يبين ما أراد بقوله: {مَا لَهَا}؟ ولا أبان ما أُصيب به، وإنما هو في ظاهر التلاوة، وقال الإنسان يومئذ: ما لها تحدث أخبارها؟ قيل له: إن ربك أوحى لها، وهو كقول القائل: قال فلان: مالك يومئذ؟ وإنما يريد: قال فلان يومئذ: مالك؟ وهو تقديم وتأخير[1]، وفي بعضه إضمار وهو: قيل: بأن ربك أوحى لها"[2]، إذ أراد – رحمه الله - أن يعيد تركيب النص بعد تفكيكه فأرداه مفككاً غير مجموع القوام، فما معنى: وقال الإنسان يومئذ ما لها تحدث أخبارها؟! فكأن سؤال الإنسان عن تحديث الأرض أخبارها بعد سماع أخبار مقولة صادرة منها، وهو غير مراد، بل المراد سؤال الإنسان عن بعثه، فزمان قول الإنسان: ما لها؟ بعد الزلزلة والبعث، الذي حصل فيه تحديث الأرض بأن الله أمرها بإخراج أثقالها، وهو كناية عن هول الموقف يومئذ.

ثم تكون الغاية للبعث: {يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ* فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ}، وهي الحساب والجزاء، فالتأويل السياقي يعيننا على بيان المقصود بقوة التركيز الدلالي، وتنحية

---

[1] القول بالتقديم والتأخير بهذا المفهوم قول عريّ عن الدليل، وهو مرفوض بسبب خروجه عن إرادة المتكلم في ذلكم الاختيار للألفاظ الدالة على المعاني المقصودة، والقول به يُذهب مرامي النظم في ترتيب المعاني على طرق الكلام، ولو كان هذا المنحى مقبولاً لما كان هناك من داعٍ لذلكم التدبر الذي يقيمه العلماء في تقديم حرف وتأخير آخر، كما هو الأمر في باب المتشابه اللفظي.

[2] فهم القرآن، الحارث بن أسد بن عبد الله المحاسبي، تحقيق: حسين القوتلي، دار الكندي، بيروت – لبنان، ط2، 1398ه، ص478.

الآراء التي تعرقل عملية التفسير المنضبط بعيداً، ولعل كثيراً ممن ينظر في الآراء التفسيرية يُذهب بصرَه عن تدبر الآيات تكاثُر تلك الآراء وتضاربها أحياناً، وفقدان بعضها القوة الاتساقية، بما يجعل المقصد القرآني غائباً عن الأذهان، وهو ما يؤدي بنا إلى ضعف التعامل مع المعاني القرآنية ضمن منهج منضبط.

المطلب الثالث: الحساب

هذا وقد جاءت سور اختصت بمقصدية ذكر الحساب يوم القيامة، وسأذكر هنا سورة الانفطار والانشقاق، وسأبدأ بالسابقة نزولاً وترتيباً[1] وهي سورة الانفطار، حيث جاءت متحدثةً عن مجموعة من الموضوعات، وهذه الموضوعات تدور حول مقصد رئيس وهو الحساب، فبدأت السورة بالحديث عن أهوال القيامة: {إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ (1) وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ (2) وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ (3) وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ (4)}، والملاحظ أن هذه الأهوال جاء ذكرها مختصراً عما جاءت عليه سورة التكوير[2]؛ لأنها ليست المقصودة سياقاً، بل هي تمهيد وتوطئة، ويأتي جواب القسم المعبر عنه بمادة العلم: {عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ (5)} ليكون "كنايةً عن الحساب على ما قدمت النفوس وأخرت"[3]، وهو مقصود السورة، ثم ينتقل السياق بنا من الحديث عن الإخبار بما علمته النفوس الممزوج بالتهديد والوعيد، إلى الخطاب المباشر الموقظ لما سيؤول إليه الإنسان: {يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (6) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (7) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ (8)}؛ ليكون السؤالَ الممهد للحساب.

وبعد ذلك نجد أن سياق الآيات يتحول من الخطاب اللائم للإنسان إلى الخطاب المنبئ عن حقيقة النفس البشرية وموقفها من يوم الحساب: {كَلَّا بَلْ

---

(1) يُنظر: البرهان في علوم القرآن، الزركشي، ج1ص193.

(2) يُنظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، ج6ص3845.

(3) يُنظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ج30ص153.

تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ (9) وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (10) كِرَامًا كَاتِبِينَ (11) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ (12) إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (13) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (14) يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ (15) وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ (16) وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (17) ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (18) يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ (19)}.

وأما سورة الانشقاق فهي مقطع متتام من أولها حتى نهايتها، وقد تناولت موضوع القيامة والبعث والحساب والجزاء، لكننا نجد أن المقصد الأساس والفلك الذي دارت حوله بقية الموضوعات هو الحساب، فالآيات الخمس الأولى تناولت القيامة مشيرةً إلى البعث: {إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ (1) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (2) وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ (3) وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ (4) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (5)}، ثم داهم الخطاب القرآني الإنسان وأوقعه في دائرة المسؤولية: {يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ (6)}، ثم انتقل به نقلة زمانية مباغتة ملتفتاً من خُطابه مباشرة إلى مخاطبته غيبةً: { فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (7) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (8) وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا (9) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ (10) فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا (11) وَيَصْلَى سَعِيرًا (12) إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا (13) إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ (14) بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا (15)}؛ ليوقفه على الحساب، الذي هو المقصد لهذه السورة في بعدها الدلالي، وغايتها الهدائية.

ثم يأتي أسلوب القسم مضارعاً لما جاء عليه في سورة التكوير: {فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ (16) وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ (17) وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ (18) لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ (19)}، والملاحظ أن أسلوب القسم هنا قد جمع معنى الجمع، فالشفق لحظة اجتماع بداية الليل ونهاية النهار، وهي اللحظة الزمانية المُذكِّرة بقوله تعالى: {فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ} [الرحمن:37]، ولا يفوتنا مناسبة هذا التذكير بانشقاق السماء كذلك، والليل ما يجمعه من الخفايا، واجتماع القمر في حالته الدائرية التي تشير إلى انتصاف عمره؛ ليبدأ في التراجع والموت بعد

ذلك، وهو تمهيد لما سيتحدث عنه السياق من التهاء الناس بالجمع والتكاثر، وترتب على تلك الصور الكونية جواب القسم وهو أن الإنسان سيركب حالات مختلفة تنتهي به إلى ما انتهى إليه الآخرون، وهو الحساب.

ويفرع السياق على ذلك كله نتيجة استهجانية استنكارية تقبيحية لمن لم يتعظ: {فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (20) وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ (21) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ (22) وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ (23) فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (24) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (25)}، وهي نتيجة تقودنا إلى لب المقصد وهو تثوير عقول المكذبين، بأن ما يجمعونه في هذه الحياة الدنيا المعبر عنه بقول الحق: {يُوعُونَ} الشبيه بتلك الصور الكونية المرتبطة بحركة الزمان سينتهي، والنهاية تحتم الحساب والجزاء، فاختصت هذه السورة ببيان مقاصدي وهو الحساب، وقد خدمت موضوعاتها التي اشتملت البعث والقيامة المقصد الأساس للسورة؛ فجاءت البداية المتحدثة عن أهوال القيامة ممهدة للمقصد، ثم جاءت نهاية السورة لتتحدث عن الممتنعين عن الإيمان بسبب انشغالهم بالجمع والتكاثر، وهو مقصد حري بأن يستقل في سورة مقطعية في إبراز العناية الإلهية بالمعاني القرآنية التي من شأنها ربط الإنسان بمقصده الذي لأجله خلق ووُجد.

المطلب الرابع: الجزاء

سأقف في هذا المطلب مع سورة واحدة وهي سورة النبأ التي تناولت مقصداً بيانياً واضحاً وهو الجزاء، وهو الغاية التي تحتمها درجات القيامة فالبعث فالحساب فالجزاء[1]، واللافت للنظر أن الجزاء باعتباره مصطلحاً صادقاً على زمن مجازاة العباد ورد في القرآن الكريم عبر لفظين اثنين، الأول يوم

---

[1] الفرق بين الحساب والجزاء، أن الحساب هو إخبار الناس بما قدموا من أعمال سابقة، بحيث يعلمون ما يترتب عليها من جزاء، فالحساب هو الخطوة الأولى للجزاء، والجزاء الحالة المترتبة على الحساب.

الدين، وهو مصطلح خاص بدلالة الجزاء، وهذا المصطلح لم يرد إلا في السور المكية ولا نجده على الإطلاق في أي سورة مدنية، الثاني وهو مصطلح عام يدخل فيه معنى القيامة والبعث والحساب فالجزاء وقد اختصت به السور المدنية، ولم يرد في السور المكية على الإطلاق وهو مصطلح اليوم الآخر.

وهذا يقودنا بطبيعة الحال إلى الاستنارة في الفهم لطبيعة المعالجة القرآنية للتصور الوثني العربي، وطبيعة الصراع الذي قام أثناء نزول القرآن بين الحقيقة المتجددة والخرافة المتبددة، وبالتالي فإن المصطلح اللفظي ليوم الجزاء قد أخذ مسارين اثنين في الدلالة اللفظية المنعكسة عن بعدها الدلالي، المسار الأول مسار البناء للدين الحق في أصوله الغيبية، وأن هذا البناء يحتاج إلى اختيار الألفاظ المتناسبة مع واقع المخاطبين لبناءٍ متدرج في تصور الحقائق والأصول الغيبية، والمسار الثاني مسار الثبات والاستقرار للمصطلح الغيبي المشتمل على جميع تفريعات الأصل الكلي وهو اليوم الآخر، وبالتالي قبل العهد المدني لم يكن لفظ اليوم الآخر موجوداً باعتباره مصطلحاً صادقاً على زمن النهاية الكونية، وإنما هو مصطلح استقر في الأذهان بعدما مُهِّد له في العهد المكي، وقام على أصول ثابتة بعد مرحلة الحوار والجدال والصراع، وبه تكون المصطلحات القرآنية المرتبطة بمفاهيمها الدلالية مقصودةً في ذاتها[1]، والسور القرآنية إنما نزلت وِفاق بناء المقاصد الإلهية في العلاج المتدرج، والعلاج المُمهِّد، والبناء المتكامل، والسور القرآنية تكون بذلك قد أخذت مجالاً فسحاً في بناء التصور المرتبط بالمقاصد وفق منهجية تخصصية هادفة، وهذه المنهجية قادت إلى تحرير السياق الكلي للسورة المقطعية، أو المقطع المتتام في السورة الواحدة، للوصول إلى الحقيقة الكلية المرادة للسورة وقت نزولها، وارتباطُ الدلالة بزمان

---

[1] وهذه المنهجية في التعامل مع المصطلحات القرآنية تقودنا إلى بث أسارير البهجة حول تثبيت ركيزة نفي الترادف في كتاب الله تعالى، حيث إن كل لفظة إنما أتت لنشر قيمة دلالية خاصة بها، وإن اشتركت مع غيرها في أصل الدلالة.

النزول من أولى أولويات البحث العلمي المفضي إلى فهم طبيعة العلاج المطلوب؛ لإجراء المقايسة والإفادة في زمن تدفق الأفهام إلى محيط القرآن، وهو ما نحتاجه زمن اختلاط الأوراق وتكاثر الأقوال وأخلاط الآراء.

ونعود لسورة النبأ التي أنبأت عن معنى الجزاء بشكله التفصيلي بعد إجراء التمهيدات، وذلك بعد قرع الأسماع بالحوار الذي أصبح مسلكاً هم سالكوه دون وعي أو تجرد للحق، الممزوج بالتهديد والوعيد: {عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (1) عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ (2) الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ (3) كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (4) ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (5)}، ثم تأتي السورة في بنائها التصاعدي بعد هذا التمهيد المنبئ عن مدى السفافة التي وصلها أولئك في كثرة تساؤلهم وتجاوزهم حد الجهل والعناد؛ لتعطيهم الإعذار الأخير في إعمال العقول والأفكار الممزوج بالامتنان: {أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا (6) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (7) وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا (8) وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا (9) وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (10) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (11) وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا (12) وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا (13) وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا (14) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا (15) وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا (16)}.

وبعد هذا الامتنان الثابت عقلاً وعادةً تفصل السورة في أمر يوم الفصل وأنه مسألة وقت، "وهو المقصود من سياق الفاتحة التي افتتحت بها السورة"[1]، يقول ابن عاشور في سبب تسميته يوم الفصل: "ويوم الفصل: يوم البعث للجزاء، والفصل: التمييز بين الأشياء المختلطة، وشاع إطلاقه على التمييز بين المعاني المتشابهة والملتبسة فلذلك أطلق على الحكم، وقد يضاف إليه فيقال: فصل القضاء، أي: نوع من الفصل؛ لأن القضاء يميز الحق من الظلم، فالجزاء على الأعمال فصل بين الناس بعضهم من بعض، وأوثر التعبير عنه بيوم الفصل لإثبات شيئين:

---

[1] التحرير والتنوير، ابن عاشور، ج30ص26.

أحدهما: أنه بين ثبوت ما جحدوه من البعث والجزاء وذلك فصل بين الصدق وكذبهم، وثانيهما: القضاء بين الناس فيما اختلفوا فيه، وما اعتدى به بعضهم على بعض"[1]، وبذلك تكون الآية قد أثبتت أن الناس متخاصمون بين مُحق ومُبطل، والله سيفصل بينهم يوم القيامة ليأخذ كلٌّ منهم جزاءه: {إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا (17)}، هذا وزمان الجزاء هو عبارة عن يومين وهما:

يوم النفخ في الصور وهو الصورة التمهيدية للجزاء: {يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا (18) وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا (19) وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا (20)}، ثم الجزاء بشكله التفصيلي التسليمي من قبل العباد فيما يلاقونه جزاء أعمالهم السابقة: {إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا (21) لِلطَّاغِينَ مَآبًا (22) لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا (23) لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا (24) إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا (25) جَزَاءً وِفَاقًا (26) إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا (27) وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا (28) وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا (29) فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا (30) إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا (31) حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا (32) وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا (33) وَكَأْسًا دِهَاقًا (34) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا (35) جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا (36) رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا (37)}.

واليوم الآخَر هو ما قبل الجزاء الفعلي، وهو الزمان الذي يقفه أولئك المكرمون من الملائكة دون كلام وهو في ذاته جزاء وأي جزاء: {يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا (38) ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآبًا (39)}، ثم تأتي القفلة في السورة لبيان غاية الإنذار المتقدم ذكره في السور السابقة في النزول: {إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا (40)}، وبه تتحقق غاية ذكر الجزاء لإنذار الناس عذاباً متحققاً في الوقوع لمن كفر وآثر الحياة الدنيا، ونعيماً متحققاً في الوقوع لمن آمن وعمل لما بعد الموت.

---

[1] التحرير والتنوير، ابن عاشور، ج30ص26-27.

والسورة ببعدها المقاصدي المحدد وما تحيط به من موضوعات فرعية خادمة للمقصد الأساس، تأخذنا في فهم لبنات البناء المتكامل للعهد المكي في بناء الأصل الغيبي المتعلق بعمل الإنسان لما بعد الموت، وهو أدعى لمن يريد أن يفهم سيرة العربي الجاهلي في مسيرة تغيير أفكاره وتصوراته، وكيفية التحول والانتقال من حال الارتباك الفكري، إلى حال الارتياد الفكري، ومن اللاوجود الحضاري إلى الوجود العمزاني، وهو ما سيعيننا اليوم إلى إعادة النظر في منهجيات التفكير لاستخلاص الطريق القرآني في العلاج والمعالجة وطرق العلاج.

الخاتمة

نخلص في نهاية هذا البحث إلى تسجيل مجموعة من النقاط ذات الأولوية التي سبق تسجيلها في البحث وهي كالآتي:

1- التأويل السياقي منهجية معتبرة في الوصول إلى المعنى المقصود وهو النظر في سوابق النص ولواحقه، وترجيح المعنى المتوافق مع سياق الكلام بما يحقق قصدية المتكلم، ويُرضي عقلية المتفهم.

2- المقصد القرآني هو المعنى الأصيل المراد في النص، المنساقة بقية المعاني له، ولا بد من توافر ركنين فيه وهما؛ الاستقامة وبلوغ الهدف، وله دلالتان هما؛ الشيء المقصود والطريق القصد، وهاتان الدلالتان متكاملتان، فالشيء المقصود هو المراد بيانه وإظهاره بوساطة الطريق القصد الذي هو عبارة عن التأويل السياقي.

3- المطلوب في الدراسة التخصصية الجادة بيان تركز كتلة المعاني في السورة أو المقطع، وبيان تشابك خيوط المعاني المنسوجة والمفصلة على علم الله تعالى لبيان التدرج في تغيير التصور إلى الدار الآخرة.

4- المطلوب في قراءة التحليل والاستنباط التركيز على مقاصد النصوص لا على موضوعات النصوص، فمقاصد النصوص هي الأساس في باب التفسير والتحليل، وموضوعات المقاصد هي الاستئناس في الفهم والبيان.

5- الفرق بين المقصد القرآني والموضوع القرآني بأن الثاني ليس مقصوداً أصالةً كما هو الأمر في المقصد القرآني، فالموضوع خادم والمقصد مخدوم.

6- العبرة كامنة في أن السور القرآنية إنما نظمت لمجموعة من المعاني مرادة لتحقيق مقصدٍ في نفوس المتلقين، وهو ما يتناسب مع الدراسة الرشيقة لفهم نفسيات المخاطَبين عند نزول القرآن، وطبيعة الخطاب في مقصده الكلي، وكيفية تغيير الأفكار المتوارثة في بعدها التدريجي، وقد عالجت السور المكية التصور الوثني المبني على الشرك والخرافة بطريق تدريجي، فمهدت للعقيدة المتجددة، وأرست قواعد التفكر والتدبر، ووجهت العقل لزوايا التفكير المنتجة في المآل، للوصول بالإنسان إلى القدرة على التفكير باستقلالية دون وجود القيود المانعة من التأمل المطلوب، وهذا ما يجب على الباحثين المعاصرين سلكَه؛ للإفادة من القرآن في بناء طرق التفكير في التخصص العلمي المطلوب.

7- اتسمت سياسة القرآن ورعايته في إنزال سوره ضمن مقاصد مرادة من منزله جل في علاه، لبناء ثقافة التدرج في التعامل مع الأفكار المخالفة، وفي التعامل مع منهجيات العداوة الفكرية والثقافية والعقدية، ضمن أبدع منهج أراده الله سبحانه وتعالى في كلامه الثابت.

8- يعيننا التأويل السياقي على بيان المقصود بقوة التركيز الدلالي، وتنحية الآراء التي تعرقل عملية التفسير المنضبط بعيداً، ولعل كثيراً ممن ينظر في الآراء التفسيرية يُذهب بصرَه عن تدبر الآيات تكاثُرُ تلك الآراء وتضاربها أحياناً، وفقدان بعضها القوة الاتساقية، بما يجعل المقصد القرآني غائباً عن الأذهان، وهو ما يؤدي بنا إلى ضعف التعامل مع المعاني القرآنية ضمن منهج منضبط.

9- نزلت السور القرآنية وِفاق بناء المقاصد الإلهية في العلاج المتدرج، والعلاج المُمهِّد، والبناء المتكامل، والسور القرآنية تكون بذلك قد أخذت مجالاً فسحاً في بناء التصور المرتبط بالمقاصد وفق منهجية تخصصية هادفة، وهذه المنهجية قادت إلى تحرير السياق الكلي للسورة المقطعية، أو المقطع المتتام في السورة الواحدة، للوصول إلى الحقيقة الكلية المرادة للسورة وقت نزولها، وارتباطُ الدلالة بزمان النزول من أولى أولويات البحث العلمي المُفضي إلى فهم طبيعة العلاج المطلوب؛ لإجراء المقايسة والإفادة في زمن تدفق الأفهام إلى محيط القرآن، وهو ما نحتاجه زمن اختلاط الأوراق وتكاثر الأقوال وأخلاط الآراء.

وفي ختام هذا البحث أحمد الله جل في علاه على تمامه، وأتقدم بالشكر للقائمين على هذا الملتقى الدولي في إتاحة الفرصة للباحث على تقديم أوراق بحثه على مائدة الحوار البناء، والعمل المنتج، بما يكون عوناً لنا يوم لقاه، إنه ولي ذلك والقادر عليه.